الرجولة المشردة

للاديب عيسى مقبل

يثار المجتمع بالشكوى من الطفولة المشردة ، ويوجه قادة الإصلاح جهودهم لمكافحتها وتعقد المؤتمرات للتشاور فى حماية الطفولة من التشرد ، وليس التشرد عندنا قاصرا على هؤلاء الأطفال الذين لفظتهم البيوت وألقت بهم الى الطريق فهاموا على وجوههم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، كلما عضهم الجوع راحوا ينبشون صناديق القمامة علهم يجدون شيئا يقيم أودهم . وإذا استعصى عليهم الحصول على شيء مدوا أيديهم للسؤال أو السرقة تحت وطأة الجوع والحرمان ، أقول ليس التشرد عندنا قاصرا على هذه الطائفة الضالة البائسة ، ولكن للتشرد ضحايا آخرين من الرجال ... ولا يقل خطر الرجولة المشردة عن خطر الطفولة المشردة فى شيء إن لم نزد عليه مغبة وسوءا . فهو مصدر من مصادره ، وعامل من عوامل انتشاره .

هؤلاء الرجال الذين يكادون لا يتركون مقاعدهم فى المقاهى والمنتديات ليلا ونهارا ، والذين يعيشون عالة على غيرهم : استعذبوا حياة التعطل واستمرأوا مرعاها ، فصرفتهم المقاهى عن العمل والكسب ، لا عن عجز أو مرض ؛ بل كسلا وخمولا ... فقد نرى رجلا مقعدا أو مبتور ذراع ورغم ذلك يعمل . لانه يأبى أن يعيش على حساب غيره ، ويأنف أن يأكل الا من عرق جبينه . بل قد نرى امرأة أو فتاة تسعى ، لأنها تؤمن بالعمل ، وتخشى الحاجة ، أما هؤلاء المشردون فهم عالة على المجتمع لا يستفيد منهم شيئا . فهم يأخذون ولا يعطون ! .

وما أكثر المقاهى عندنا . وما أكثر روادها .

يغشاها الكبير والصغير ، يلتفون حول موائدها ، ويعكفون على لعب الورق أو النرد ، يخوضون فى السير والأعراض ... وقلما تخلو سيدة أو فتاة من ألسنتهم الحداد ... وتصرفهم أحاديث المقهى عن التفكير فى النواحى المجدية . بل إنها لتصرفهم عن الاستماع إلى آى الذكر الحكيم ، إذا تليت عليهم آياته ! ...

*

وهؤلاء الأزواج الذين يغترون من بيوتهم ، ويهجرونها إلى الموانى ودور اللهو ، حيث يقضون جانبا كبيرا من الليل ولا يعودون إلى بيوتهم إلا فى الهزيع الأخير منه . كيف يتسنى لهم إسعاد هذه البيوت ، وتوجيه الأبناء ، وأداء رسالة الأبوة ؟ ! ..

هذا التفكك العائلى الذى نشكوه يعزى إلى انصراف الأزواج عن بيوتهم ، ففى أحايين كثيرة لا يلتقى الأبناء بالأب إلا بعض ساعات فى الأسبوع . إن هؤلاء الأزواج لا يعتبرون البيت إلا فندقا لا يأوون إليه إلا وقت النوم ! !

يعود الزوج من عمله فيتناول غداءه ثم يأخذ قسطا من الراحة ، ثم يغادر البيت فلا يعود قبل منتصف الليل ، بعد أن يأوى الأبناء إلى مضاجعهم ، ثم يخرج الأبناء إلى مدرستهم صباحا قبل أن يستيقظ الأب ، وهكذا تمر أيام الأسبوع دون أن يلتقى الأب بأبنائه ! ...

ومنهم من يشكو من افتقار البيت المصرى إلى وسائل التسلية التى تحبب للزوج البقاء فى البيت ، وفى يقينى أن الرجل يستطيع أن يكفل لنفسه وسائل التسلية إن أراد هو ذلك... ووسائل التسلية كثيرة ، كتنظيم مكتبة يجد فيها أفراد الأسرة متعتهم الأدبية ، أو غيرها من هوايات ، على أن يخصص الزوج لنفسه جانبا من الوقت يقضيه مع أصدقائه دون أن يحرم البيت والأبناء نصيبهم ، فيصحبهم للنزهة يوما فى الأسبوع ، ويقسم فراغه تقسيما عادلا منظما...

ومن عجب أن نرى هؤلاء الأزواج ينفقون خارج البيت فى سخاء وإسراف ظاهر ، بينما يقبضون أيديهم ويضنون على بيوتهم وأبنائهم بألزم الضروريات . . لأنهم يريدون أن يظهروا أمام رفقائهم بمظهر اليسار ، أما البيت ... أما الزوجة ... أما الابناء... فكل هؤلاء فى نظرهم من الأبواب الثانوية !

فهذا زوج يتقاضى راتبا قدره عشرون جنيها ينفق نصفه أو مايزيد عن النصف خارج البيت... وقد يكون بيته أحوج ما يكون إلى هذه المبالغ التى يبعثرها على الموائد... وقد يكون أبناؤه فى حاجة الى أقساط المدرسة أو رسوم الامتحان ، ولكنه رغم كل ذلك يؤثر الكمالى على الضرورى ، لأنه يحب أن يظهر بمظهر هو دونه ... على حساب هؤلاء البائسين .

لقد لجأت سيدة كريمة الى احدى الهيئات الحكومية شاكية زوجها لأنه لا يحسن التصرف ، ولا يدير شئونه المالية بعين الحكمة والتبصر ، طالبة الحجز على راتبه وصرفه إليها لتتمكن من الإنفاق على الأبناء ! ... شكت هذه الزوجة زوجها لأنه ينفق معظم وقته خارج البيت ، ومعظم راتبه كذلك ، وأبناؤه محرومون من المأكل والملبس ، فلم تجد الزوجة بدا من الشكوى !

وأمثال هذه الزوجة كثيرات ... يضقن ذرعا بالحياة الزوجية لسوء تصرف الزوج ، ولا يجدن حيلة يقومن بها إعوجاج هؤلاء الأزواج . بل إن منهن من تضحى بمالها وما تملك لتعوض ماقصر عنه الزوج... ولو أنصف الرجل منهم لآثر البيت بماله ووقته فأدى حقوق الأبوة ، وحقوق المجتمع ... الا ليتهم ينصفون !

* * *

وانصراف الرجل عن البيت من العوامل التى تحمل الزوجة على إهمال شئون البيت ، وانصرافها عنه ، وتبرمها من البقاء فيه ...

ومن هؤلاء الرجال المشردين من يشترى حريته بترك الحرية للزوجة ، وهنا الطامة الكبرى ... إذ تتشرد الأنوثة ، وتتمخض مشكلة الرجولة المشردة عن مشكلة أخرى هى مشكلة الأنوثة المشردة ...

فتيات لا يجدن من الوالد رقابة تحميهن...وزوجات ترك لهن الأزواج المستهترون الحبل على الغارب ... فتشردت الأنوثة ، إذ جنت عليها الرجولة المشردة !

وماذا بعد أن تشردت الرجولة والأنوثة ؟

لا يلبث الأبناء أن تتعثر بدورها ، ويجرفها تيار التشرد لضعف الرقابة وعدم الحماية من جانب الوالدين ... فاذا بنا أمام مشكلة ثالثة هى ثالثة الأثافى ... الطفولة المشردة !

وهكذا نجد أن الرجولة المشردة هى مصدر الأنوثة المشردة، ومنبع الطفولة المشردة، فاذا أردنا حماية الأنوثة والطفولة من التشرد وجب علينا أن نبدأ بمحاربة الرجولة المشردة، وحماية البيوت من شرورها ...

فاذا رأيتم طفلا مشردا ، فسوقوا اللوم الى راعيه الذى لم يحسن رعايته ، وانصرف عن توجيهه ، وتركه فى مجاهل الحياة لا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا ...

واذا رأيتم فتاة تشردت ، فسوقوا اللوم الى راعيها الذى أغفل حمايتها ، وتهاون فى رعايتها ، وتركها فريسة لتيار الغواية ، وشياطين الضلال ..

واذا رأيتم زوجة تشردت، فسوقوا اللوم الى راعيها الذى فتح لها الباب على مصراعيه، فتسلطت عليها الذئاب !

إن كثيرا من هؤلاء الأطفال المشردين لم يفقدوا آباءهم... ولكنهم فقدوا رعاية الآباء... فلم يجدوا من يؤويهم من تشرد ، ويغنيهم عيلة ، ويهديهم من ضلال ...
لم يجدوا من يرعاهم ، ويوجههم، ويحوطهم بسياج الحماية والعناية ، فطوحت بهم الأقدار إلى هذا المصير المظلم ، وهم الأبرياء ! ...

هاموا على وجوههم فى الطرقات ، واظلمت الدنيا فى أعينهم ، فكانوا ضحايا الرجولة المشردة ...

فالواقع أنهم و إن كانوا لم يفقدوا آباءهم أمواتا ، فقد فقدوهم أحياء ! ...

* * *

أعود بعد ذلك فأقول إن التشرد الذى تستهدف له الرجولة هو أخطر ما يخشى منه على المجتمع ، وهو مصدر الأنوثة المشردة والطفولة المشردة... لذلك يجب أن نعمل على مكافحة الرجولة المشردة لنأمن شرورها وننقذ ضحاياها ! ...

عيسى متولى